

محاولات تجاوز

مجموعة قصصية

أحمد رمضان

إلى أمي وأبي ..

لكما أحكي الأساطير ..

وعنكما أخفي الإنكسارات ..

To you …
My own little fairytale …

It was that night I discovered that most things you consider evil or wicked are simply lonely, and lacking in the social niceties.

Edward Bloom,
Big Fish, a Movie by Tim Burton

... أحد صباحات أحد ...



... أحد صباحات أحد ...

كان يصحو في الرابعة ظهرًا في أيام الأحد بحكم أنها عطلته الرسمية، يتنفس بعمق فجأة كأنما يغرق، ويفتح عينيه على إتساعهما، رائحته كألف عقب سيجارة محترق وشفتيه بيضاوين متقشرتين، لم يعتد أن يترك ستائر غرفة نومه مفتوحة، ولهذا ضايقه النور القادم من النافذة، نظر حوله ليجد بأن فوضاه المحببة قد أختفت من حوله، هناك لمعة غريبة على زجاج الطاولة بجانبه، ومطفأة السجائر التي تكون مليئة عادة بأعقاب سجائر تتشاجر كانت نظيفة براقّة، حتى زجاجة الـــ"فودكا" الأصلية التي بعثها له "ماهر" من "أوروبا" لم تكن في مكانها المعتاد (مرمية على الأرض أو متدحرجة تحت السرير)، بل كانت فوق طاولة جانبية وبجانبها كأسين لامعين نظيفين.

تململ في فراشه ونادى باسمها، فهو يعرف بأنها هي التي تأتيه في أيام الأحد لتقوم بكل هذا قبل أن تجلس بجانبه في السرير مداعبة وجنته وموقظة إياه بإفطاره المحبب.

عندما لم يتلقى جوابًا قام من السرير، وبحث عن ثوب الحمام الأنيق الذي يحب ارتدائه، وعندما لم يجده، ارتدى بنطال البيجاما الأزرق وخرج من الغرفة مناديًا إياها من جديد.

وعندما لم يتلقى ردًا بحث عنها في المطبخ، غرفة الجلوس وصالة الضيوف، قبل أن يفتح باب مكتبه.

وهناك خلف المكتب كانت "سوسن" تقف مبتلة الشعر معقوصته، ترتدي ثوب الاستحمام الخاص به، وتقطر ماءًا من كل مكان.

تحت قدميها كانت مجموعة الإسطوانات التي يحب الاستماع إلى موسيقاها عند الإستيقاظ، وقد سقطت بدون ترتيب، أما بين أصابعها فكانت رسالة "ناتاشا" الأخيرة التي وصلته في المساء السابق.

وإذ اقترب منها أدرك بأن الماء الذي يقطر من وجهها ليس بماء.

* * *

كانت "ناتاشا" في تلك الأثناء ــ للغرابة ــ تفكر به.

واقفة هناك خلف مكتبها الطويل في صالة إستقبال الزوار في المطار، تنظر بنصف عين وربع عقل إلى أوراق الداخلين من رحلة "نيويورك ــ القاهرة"، وتبتسم للجميع في ديناميكية إذ تفكر به.

كان بالنسبة لها كسطوع أضواء متقطعة، معميًا واضحًا ومثيرًا للجدل، كان دائمًا بالنسبة لها هو الشخص المغادر فورًا والذي لا يعود إلا لمامًا، كان رجل العودة صادمًا، يأخذها عبر دروب لم تحلم بها، ويرميها إلى أطراف العالم، يبتسم لها فتشع الدنيا نورًا ويغمض عينيه فلا ترى !

دائمًا كانت فكرتها عن اللقاء الأول بينهما ضبابية، فكثيرًا ما كانت تراه عائدًا من رحلته الأسبوعية إلى "شرم الشيخ" بالطائرة، عندما يتحايل مع أصدقائه من ضباط المطار، ويدخل السوق الحرة الدولية لشراء سجائره وكحوله المستوردة.

ولم تكن تعره أي انتباه إذ كان جل همها هو أن تتأكد من سلامة أوراقه في كل مرة.

لكن المرة الأولى التي تكلما بها كانت في استراحتها القصيرة التي تأخذها بين الحين والأخر، تأتي صديقتها ذات الحجاب الأسود والابتسامة المريرة، وتأخذ مكانها لبضع دقائق تنسل فيها "ناتاشا" إلى بار المطار، حيث تأخذ كأسًا أو أثنين من أي مشروب تجده أمامها.

كانت منشغلة بألا يراها أي من مدرائها عندما جلس بجانبها ودفع لها ــ بلباقة ــ ثمن مشروباتها.

بعد أسبوع من تعارفهما كان قد دعاها إلى العشاء مرتين، وإلى مشروبات خفيفة في إحدى بارات المطار، قبل أن يدعوها لزيارته في منزله.

وما إن جلست في إحدى الكراسي الكبيرة حتى كان قد مد يده وأمسك بخصرها، لم تمر لحظات حتى كان يقتحمها في عز أوج حرارتها، وفي لحظات المد والجزر النارية تلك، وإذ كانت تحاول إنتزاع أنفاسها من الهواء المحيط بها كأنما تغرق، لم تستطع أن تمنع نفسها من أن تتساءل : ما دام قد حصل على الطلاق من زوجته منذ شهور كما يقول، فلماذا لا تزال صورتها بفستان الزفاف الأبيض تتوسط

الحائط المقابل ؟!

* * *

وزوجته "مريم" لم تعرف في البداية ما ينتظرها في ليلة الزفاف.

أمها التي توفيت عندما كانت في الرابعة من عمرها كانت المسئول الطبيعي عن مثل هذه المهمة، ولكن موتها ــ طبعًا ــ حال بينها وبين هذا الواجب المقدس، ولم يستطع الأب الخجول الحديث عن مثل هذه المواضيع مع أبنته، فلم يملك إلا أن يطبع قبلة على جبينها، وهو يسلمها ليد زوج المستقبل العتيد.

وهكذا، وبمعلومات أكثرها خيالي صرف سمعتها من صديقات المدرسة كانت "مريم" تركب سيارة الزفاف السوداء المغطاة بالورود الحمراء والبيضاء وترتجف من القلق، وتتصنع الإبتسامة.

وما إن لامس حذائها أرض غرفة النوم حتى تملكتها حمى البكاء، ولكنها تحملت أنفاسها، وجلست على السرير معطية ظهرها لزوجها الذي يخلع قميصه في الطرف الآخر من الغرفة.

وعندما لمس كتفها بأطراف أصابعه تملكتها رجفة شديدة كادت تودي بوعيها، ولكن لمساته الحانية بدأت ترخي لها أعصابها المشدودة، وتقربها أكثر فأكثر من حافة الهاوية التي سمعت عنها من صديقاتها إذ يتكلمن في همس أثناء حصة علوم الرياضيات.

أصابعه الخبيرة حلت عنها رداء الزفاف، وأمدت تقترب من مناطق في جسدها لم يلمسها إنسي من قبل، ورويدًا رويدًا كان الألم اللاسع يغوص في جسدها صاعدًا بها إلى عنان السماء.

وفي لحظة الإلتحام الأخيرة أستطاعت "مريم" أن تشتم عطرًا نسائيًا في سرير زوجها.

لكنه لم يكن عطرها.

* * *

عندما فتح باب منزله قبل يوم زفافه بليلتين وجد خلفه "سمر" ترتدي أجمل ما لديها، وتضع العطر الذي يفضله، وإن كان وجهها معربدًا بالغضب، ولفمها رائحة

الخمر.
حاول تهدئتها مانعًا إياها من الصراخ، ولكنها أصرت بالوقوف على الباب صارخة بأعلى صوتها تتحدث عن زوجته القادمة، تؤكد له بأنها سعيدة حقًا من أجله، فهو يستحق فتاة مثلها كي يعرف حجمه في الحياة، سألته إن كانت تجيد الطهي، كي تقوم بطبخ أطباقه المفضلة كي تعوضه عن كيمة المتعة التي كان يحصل عليها في لحظات مطارحة الغرام مع "سمر".
بدأ صوتها يغيب رويدًا رويدًا بالنسبة له، وهو ينظر إليها بهدوء حاكًا شعر رأسه بأصابعه، وعلى وجهه علامات ضيق ظاهر، ومن خلف أحد الأبواب المجاورة ظهر رأس السيدة العجوز التي تعيش لوحدها مع مجموعة من القطط الصغيرة، تنظر إليه شذرًا، وتسمع المزيد من ترهات "سمر" الغاضبة التي بدأت تقول كلامًا ضائعًا عن عدد المرات التي سيخطئ هو بها وينادي زوجته الجديدة بـــ "سمر"، أو عن الاسم الذي سيفكر به في لحظة الإنغراس إياها، عندما يقبل على زوجته في ليلة الزفاف، هل سيكون اسم الزوجة العتيدة، أم اسم "سمر" ؟!
في تلك اللحظة كانت الدموع قد أختارت لنفسها عوالم جديدة، وأصبحت تهطل من وجه "سمر" كالأمطار، عندها أمسك بخصرها، واتجه بها مطبطبًا نحو السرير، مغلقًا الباب في وجه العجوز المتلصصة وقططها الصغيرة.

* * *

وعندما مد يده يحاول التربيت على كتف "سوسن"، أو سحبها من خصرها إلى السرير، ألقته بنظرة سوداء أودعت بها كل كراهيتها، وتراجعت خطوة إلى الخلف، وعندما حاول الإقتراب منها رفعت يدها بأقوى صفعة في حياته قبل أن تغادر المكتب إلى حيث ثيابها وتعصف طريقها خارجة من منزله.
كان لا يزال نصف مصعوق وربع نائم عندما غادرته "سوسن" فقرر العودة إلى غرفة النوم، حيث أرسل رسالة قصيرة إلى "ميادة" كي تزوره في المساء، وعاد إلى سريره وذهب في النوم.

* * *

... رائحة تثير الغثيان ...



... رائحة تثير الغثيان ...

عندما دخل رجال الشرطة إلى منزله، محطمين له الباب الخشبي القديم، كان ما وجدوه مثيرا للغثيان إلى أقصى درجة، حتى إن بعضهم قد تراجع إلى الوراء إثر الرائحة محاولين إخفاء أنوفهم بأصابعهم، ولكن الرائحة كانت قاسية ماحقة حتى أنهم لم يستطيعوا لها رادًا.

ثم جاء مصور الشرطة، والذي تسلّح بكمامة واقية جعلت أنفه منيعًا نوعًا تجاه الرائحة، وبدأ يلتقط الصور للمشهد العجيب أمامه وهو يفكر : ما الذي خطر ببال هذا الشخص حتى يفعل هذا الأمر ؟!

* * *

وهذا السؤال دار بدوره في أعماق محقق الشرطة الذي كان ينظر إلى ساعته بين الحين والآخر مستعجلاً عودة المصور، ويرمق عبر نافذة خاصة المتهم إياه.

تلك النافذة كانت تسمح له برؤية المتهم مانحة المتهم من الناحية الأخرى مرآة كبيرة يرى فيها نفسه.

هذه الحقيقة أثارت فزعه لأنه أدرك فجأة أن المتهم ينظر إليه عبر النافذة، بثبات مثابر وروح عالية، ثم فجأة، ابتسم المتهم للمحقق الذي تراجع إلى الخلف خطوة بخوف كبير، ولم يخطر بباله على الإطلاق وهو يبحث لنفسه عن كوب ماء أن المتهم كان يبتسم لانعكاسه هو نفسه على المرآة.

* * *

دفع المحقق باب غرفة التحقيق ودخل، جلس على الكرسي في الناحية الأخرى من الطاولة دون أن يخلع معطفه، وإن تأكد بأن حركته التي يتصنعها عفوية، والتي تسمح للمتهم برؤية المسدس الآلي المعلق تحت إبطه، قد تمت بالطريقة المسرحية التي أرادها تمامًا.

جلس بهدوء للحظة، ثم دفع الصور تحت أنف المتهم، وطلب منه أن يحكي ..

لم يقاوم الأخير، لم يتنهد، لم يعط أية إشارة على التردد، بدأ في الحديث فحسب.

* * *

بدأ هوسه بسكان الشقة رقم 17 في البناء رقم 6 بشكل مفاجئ، كان يأتي ليجمع القمامة في كل صباح في تمام العاشرة، يدرك بأنه عمل منفر ولكنه ببساطة العمل الذي اختاره، تعود عليه ولم تعد روائحه تثير غثيانه، بل على العكس، كان يسمح له بممارسة هوايته المحببة في البحث عن الأشياء المميزة واللامعة في أكياس القمامة التي يجدها جاهزة له على أبواب الشقق المختلفة.

كان يستمتع بإلقاء النظرات الفاحصة على القمامة، ويدرك منها الكثير من الأسرار، فهو مثلاً أدرك عمل السيدة المحترمة المقيمة في الطابق الرابع والتي تحتل شقتها مساحة أربع شقق فيه، أدرك عملها من كمية أكياس الواقي الذكري التي يجدها في قمامتها كل صباح جمعة أو اثنين، كما عرف المراحل الدراسية لأبناء الموظف الذي يحتل إحدى شقق الطابق السادس مع عائلته عبر كتبهم المدرسية التي يرمونها في آخر كل عام، أدرك قصة الحب التي تشتعل أحداثها بين ابن عائلة الدور الثاني وابنة عائلة الدور الخامس وأعجب بتفاصيلها عبر رسائلهم الغرامية والتي تقوم الشابة بتقطيعها خوفاً من أن يراها والدها.

ولكن الشقة رقم 17 كانت دائمًا غليقة عليه، لم يدرك كنن ساكنيها على الإطلاق رغم بحثه الجاد في قمامتهم بشكل دوري، حتى جاء ذلك اليوم الذي وجد في القمامة باقة ورد حمراء شاب ورودها بعض الذبول.

حملها بين يديه وحك رأسه للحظات، وتخيل المشهد كاملاً داخل عقله.

*   *   *

يدخل الزوج الحبيب من باب الشقة، حاملاً باقة الزهور الحمراء، يقدمها لحبيبته وزوجته ويركع على قدم واحدة، يقبّل لها أصابعها كما في الأفلام قبل أن تربت على كتفه داعية إياه إلى العشاء، يبتسم لها ويقفز حاملاً إياها بين يديه ويغرقان في قبلة محمومة، تقع باقة الورد أرضًا فيبتسم الزوج ويعدها بسبع باقات بدلاً منها في الغد، ويستحلفها ألا تحاول حتى رفعها.

لم يكن يعرف بأن الزوج قد جاء بباقة الورد هذه أمس لزوجته، رماها لها على منضدة المطبخ وأحتضنها من خلف ظهرها إذ تغسل الأطباق غير مبالية به، أخذ يقبّل رقبتها بنهّم حيواني فنفضته عن كتفها باحتقار عندما شمت رائحة الخمر

المنبعثة من فمه.

* * *

أصبحت الشقة رقم 17 هاجسًا حقيقيًا لرجل القمامة، أخذ في كل يوم يجمع قمامتها بشكل دقيق ويفرزها دون أن يدع قطعة منها دون دراسة، وقل اهتمامه رويدًا رويدًا بقمامة الآخرين الذين اكتشف أسرارهم وعرف حكاياهم بالفعل، صحيح أنه في بعض الأحيان لا يزال يجد غرائب ملفتة للنظر في قمامة الآخرين كبقايا سجائر الحشيش التي وجدها في قمامة الموظف وعائلته، والتي عرف حقيقتها الملغومة بالشم، أو علب الجبنة الفاخرة التي رماها الشابان اللذان يسكنان فوق السطح في شقة صغيرة دون أن يكملاها بعد أن استغربا طعمها المختلف عن طعم جبن قريتهم.

في حين ظلت الشقة رقم 17 ذات قمامة نظيفة من الأسرار عارية من التكهنات، حتى وجد في أحد الصباحات لغزًا جديدًا ..

مجموعة من الأطباق المحطمة استقرت في قعر الكيس تنتظره لدراستها.

* * *

لابد أن الزوج قد دفعها بيده غير عابئ بها عندما داعبته الرغبة في زوجته الآن وحالاً، دفعها برقة فوق طاولة المطبخ، وأسقط الأطباق ليحطمها على الأرض، تململت الزوجة للحظات إلا أن قبلاته جعلتها تتجاهل الأمر برمته.

في حين أن الواقع هو أن الزوج قد كسرها أمس عندما جاء يطالب زوجته بحقوق الزوجية، إلا أنها رفضت وطلبت منه بهدوء أن يطالب عاهراته المختلفات اللواتي يقابلهن بشكل دوري بما لن تتحمله هي منه.

* * *

بعد صباحات عديدة، لاحظ رجل القامامة أمرًا أطار صوابه وكاد يجن من أثره، لقد لاحظ لمعة براقة في قفل باب الشقة رقم 17، من باب الشقة تدلى مفتاح صغير ذو ميدالية فضية، اقترب خفرًا وخاف لو أصدر أي صوت أن يُفتح الباب فتضيع عليه الفرصة، مد أصابع مرتجفة وأخذ يسحب المفتاح من القفل دون صوت، وما إن صار المفتاح بين يديه حتى فُتح الباب بالفعل، تراجع هو والزوجة

خطوة إلى الوراء إثر المفاجأة، وأخفى المفتاح بين أصابعه وهو يرمق الزوجة بعينين واسعتين، وعندما نطقت تسأله عما يريده أجابها بأنه يجمع القمامة، ابتسمت له، واستطاع أن يشم رائحة ابتسامتها دون أي عائق، قبل أن تدخل إلى المطبخ لتغيب لثوان سمحت له أن يستعيد أنفاسه من انبهاره بها، وتعود بكيس قمامة نظيف وتعطيه إياه باليد وهي تبتسم.

ابتسم لها ابتسامة بلهاء قليلاً ففهمت رسالته التي لم يكن يعنيها، وفتحت حقيبتها كي تعطيه بقشيشًا ما، إلا أن الحقيبة وقعت من يدها وتدحرج خارجها أحمر الشفاه الخاص بها محطمًا، تأففت بشدة فأخذ هو أحمر الشفاه المحطم ووضعه في كيس القمامة، وابتسم لها وغادر.

رمقته للحظات قبل أن تدرك بأنها نسيت أن تعطيه نقودًا، ثم فكرت .. ربما في المرة القادمة.

* * *

في تلك الليلة دق الزوج الباب في الرابعة صباحًا، كان مخمورًا وهو يتهم زوجته بأنها أخفت سلسلة مفاتيحه، لكنها حافظت على هدوئها المعتاد وهي تسأله إن كان قد أوقعها في واحدة من زجاجات خمره.

* * *

لم يأت رجل القمامة في الصباح التالي في معاده المعتاد، وصل إلى البناء رقم 6 متأخرًا قليلاً، انتظر تحت البناء لبعض الوقت حتى شاهد الزوجة وهي تغادر المنزل، يدرك بأن الزوج قد غادر من الصباح الباكر أو لم يعد حتى اللحظة، لابد أن الأخير يكد عرقًا من أجل إرضائها، ولابد أنها تهديه قبلات صباحية على الهاتف كل يوم.

صعد رجل القمامة السلالم حتى وصل إلى الطابق الأول حيث الشقة رقم 17، ودون تردد فتح بابها بالمفتاح ودخل، وأقفل الباب من خلفه.

الآن هو هناك، في قلب السر الصغير إياه، يستطيع أن يرى بنفسه، أن يحكم بنفسه، يستطيع أن يعيش حياته الصغيرة ها هنا.

وجد نفسه في المطبخ، كل شيء نظيف ومرتب، كل شيء هادئ إلى أقصى

الدرجات، هناك لمعة لطيفة على كل الأشياء تدل على نظافتها، هناك أناقة واضحة في ترتيب معدات الطبخ، والثلاجة تلقي بريقًا خاطفًا على عينيه .. عندما فتحها كانت الأطعمة والمشروبات مرتبة بشكل أنيق وواضح، مد يده وسحب زجاجة مياه غازية، فتحها وبدأ يشربها بهدوء.

اتجه إلى غرفة الصالة، الأناقة تلاحقه في كل مكان، الهدوء والجمال يتابعانه دون مشاكل، يرى منامة رجالية على الكرسي، ينظر إليها للحظات قبل أن يبدأ بخلع ملابسه وارتدائها، سُعد بها حقًا، سُعد بإحساسها على جلده.

قام بتشغيل الراديو على إذاعة الأغاني، وجلس على أحد الكراسي، رفع قدميه على الطاولة، وتلذذ بباقي زجاجة المياه الغازية.

بعد ساعتين قرر الرحيل، قام ورتب مكان جلوسه، خلع المنامة وارتدى ثيابه، وفتح الباب وخرج، وقرر بأنه مادام هنا، فليقم بعمل اليوم.

صعد السلالم وبدأ بجمع أكياس القمامة، ولكن على السلم قابل وجهًا مألوفًا، كان الزوج يفتح باب شقة السيدة المحترمة التي تسكن في الدور الرابع، ويخرج منها وهو يطبع قبلة حارة على شفتيها الحمراوين.

نظر إليه بذهول ولم يتكلم.

* * *

اشتكى جيران رجل القمامة من الضجيج الذي يصدر من شقته وطلبوا الشرطة، حطم رجال الشرطة الباب بعد محاولات مضنية بأن يقنعوه بفتح الباب دون جدوى ودخلوا، وفي الداخل وجدوا أشلاء مبعثرة لأشياء رماها أشخاص آخرون وجمعها رجل القمامة، كتبًا مدرسية ورسائل غرامية وقطعًا زجاجية ونحاسية، كلها محطمة ومبعثرة على الأرض، يجلس بينها رجل القمامة وأصابعه مدماة، يمسك بيده شهادة الدكتوراة الخاصة به، ويسند ظهره إلى حائط عُلقت على جدرانه بعض الورود الذابلة، والأطباق المكسرة، ومرآة جميلة كتب عليها بخط من أحمر شفاه جملة واحدة : ـــ لماذا أنا دائمًا ؟!

كانت الرائحة لا تطاق، ولكن المشهد بأكمله كان رومانسيًا حزينًا.

* * *

... من وراء النظارة ...



... من وراء النظارة ...

رمقها باستغراب، إذ تخرج من محفظتها الصغيرة ــ والتي كانت تحملها بكلتا يديها فوق صدرها ــ مجموعة من الأوراق المالية الزرقاء والحمراء والصفراء، وتضعها في كومة صغيرة على الطاولة أمامه قبل أن ترفع أصبعها لتعيد النظارة السميكة إلى عينيها، فأسرع يضع يده فوق الكومة أمامه كي لا يطيرها نسيم البحر.

وعبر الأوراق المالية المبعثرة، تأمل انعكاس وجهها العجوز على زجاج الطاولة المكسر، ونظارتها السميكة تعكس شموسًا بيضاء على الزجاج، ثم تنهد وقال لها إن كومة نقودها هذه ستكفيها ساعة ونيف من استئجار القارب الشراعي الذي تطلب.

هزت رأسها موافقة، ورفعت حقيبة صغيرة عن الأرض، دون أن تنتبه إلى أن خصلات شعرها الأبيض قد أفلتت من العقدة التي كانت تشدها إلى بعضها، فتبعثرت.. وتبعثرت..

* * *

حاولت أكثر أن تزيد من سرعة القارب، رغم عدم خبرتها به، محاولة الوصول إلى السفينة.

ولكن الرياح كانت تدفع القارب نحو السفينة الضخمة بسرعة قليلة نسبيًا، ولم تفهم ما الذي يتوجب عليها فعله، خصوصًا وأن المسافة بينها وبين الشاطئ أصبحت كبيرة مرعبة، مثلها مثل المسافة بينها وبين السفينة.

ونظرت للحظات إلى المياه بجانب القارب، ولم تستطع أن تميز عمق البحر كثيرًا، وإن لم تكن مهتمة حقًا بمعرفته، قدر اهتمامها بالوصول إلى السفينة المغادرة قبل أن تبتعد أكثر.

وفوق الرمال.. وقف تاجر القوارب يتأمل الأفق ويتابع ساعته، إن استمرت العجوز بالابتعاد هكذا، فلن تعود في الوقت المحدد، وسيضطر إلى تغريمها المزيد من النقود..

ومن البعيد، هبت رياح باردة حملت القارب مسافة أقرب إلى السفينة المبتعدة، فابتسمت العجوز سعيدة بإنجازها، وتابعت بنظرها أكثر السفينة الضخمة التي بدأت تضيء أنوارها.

أما في عمق الأفق، فكان هناك برق يمزق السماء معلنًا عن اقتراب عاصفة.

* * *

تنفست بعمق فسمعها "ابن عرس" المخادع، وأزمع أمرًا، تقرّب منها وتبسّم لها وبدأ يخادعها بكلامه المعسول، وعندما رفضت أفكاره، حاول "ابن عرس" المخادع أن يخنقها كعادته، ولكن صغيرها جاء وأمسك بابن عرس من ذيله، ورماه في الهاوية..

أحست بالامتنان للصغير، وودت لو تهديه زهرة "الأركيديا" التي نبتت فوق الشجرة، ومدت يدها تضعها على كتفه.. ولكنه ــ في لحظة ــ تزايدت الشعيرات على وجهه تصنع ذقنًا، وتحشرج صوته، ليصبح نسخة أكبر في العمر منه، صرخ بها أن تبتعد عنه وهو يدفع يدها عن كتفه، فلم تصدق أذنيها..

وبسرعة، ضمت المشهد الأخير إلى قائمة المشاهد الغريبة التي تتخيلها في كثير من الأحيان، ومسحت عن العالم من حولها ضياء خيالها، لتجد نفسها من جديد في غرفة الصغير ترتجف قهرًا من المشهد الذي عدته خياليًا، ولكنه أشد ألمًا من خيالاتها المعتادة.. ربما لأن الصغير هو منقذها الدائم من "ابن عرس" المخادع المصر على خنقها.

ثم هي لم تفهم.. لماذا ينعتها بالمجنونة..؟! ويطالبها بالكف عما تفعله..؟! لماذا رفض أن تربط قدمه بالفراش كما السابق، مانعة إياه من التسلل إلى عالم الكوابيس عندما ينام ؟!

هي لم تفعل شيئًا خاطئًا، فكل همها هو حمايته، وإبعاده عن "ابن عرس" المخادع ومن والاه من الوحوش، ثم التأكد من أنه يحفظ دروسه جيدًا ويعيش حياة سعيدة، ثم يتزوج من تربط قدمه إلى السرير مانعة عالم الكوابيس من دخول منزله السعيد.

وظل مشهده وهو يحمل حقيبته مغادرًا المنزل نحو وجهة مجهولة لها يثير حيرتها

طوال أربع سنوات تلت هذا الحدث.

هل غادر حقًا ليسكن وحيدًا دون حتى كلمة وداع؟!

* * *

وهي رغم بعده عنها طوال سنوات الجامعة كانت تتابع كل تحركاته ..

تظهر له فجأة أمام باب الجامعة مع ابتسامة عريضة متحفظة، وهي تحمل حقيبتها الصغيرة بكلتا يديها فوق صدرها، وتدفع نظارتها السميكة بطرف أصبعها لتعيدها إلى مكانها، فيطأطئ رأسه ويغادر أصحابه نحوها ليأخذها إلى منزلها دون كلمة..

ولكم حاولت أن تتكلم معه، ولكنه كان يسرع الخطوات، فلا تملك إلا أن تطلب منه التوقف، كي يسمح لها بالتقاط أنفاسها، وإعادة نظارتها السميكة إلى مكانها فوق عينيها.

ثم تعلمت أن تلاحقه حتى عرفت الشقة التي يسكن بها، فجلست بالساعات مع صاحبة الشقة العجوز التي سمحت لها في النهاية بأن تزور شقة ابنها.

دخلت الشقة مطمئنة إلى جدول مواعيد محاضراته الذي تحفظ، وقامت بتنظيفها، ووضعت زهورًا بجانب السرير وطبعت قبلاً على صفحات كل كتاب، قبل أن تترك عود بخور فوق المكتب وتغادر.

ورغم انتشار خبر الحريق أيامها، إلا أنه لم يصلها إلا عندما حاولت إعادة الزيارة بعد أسبوعين..

* * *

ولم تفهم حتى بعد انتهاء زيارته المسائية تلك معنى جملة السفر إلى إيطاليا من أجل العمل.

وطلبت منه أن يبدأ بزيارتها في كل ليلة ــ بعد أن كانت زياراته أسبوعية ــ ليشاركها العشاء في المنزل، ولكنه ابتسم وأخبرها عن بُعد إيطاليا عن منزلها، وصعوبة زيارتها يوميًا من هناك، فهزت رأسها في أسى وصمتتْ.

لقد كان يزورها للعشاء كثيرًا عندما كان في الجامعة رغم بُعد الأخيرة عن منزلها، لماذا لا يفعل ذلك وهو في إيطاليا هذه؟!

* * *

أما في يوم السفر فقد استيقظت مبكرًا وانطلقت من فورها إليه.

وهناك ضمها وقبلّها من الخدين، ورجاها أن تهتم بنفسها، فوضعت حقيبة صغيرة في يده وقالت إن فيها غداءه.

ضحك ضحكة قصيرة قبل أن يعتذر عن قبول الهدية، بسبب قوانين السفر التي تمنع اصطحاب الأطعمة، ولكنها كانت أكثر إصرارًا.

هز لها رأسه وابتسم، قبل أن يحمل الحقيبة ويغادرها، فظلت تلاحقه بنظراتها وتحاول أن تميز رأسه بين المسافرين، رأته وهو يضع حقيبة الطعام على الأرض ويخرج منديلاً من جيبه ليمسح عرقه، ثم يمشي تاركًا حقيبة الطعام خلفه.

وضعت يدها على فمها لتمنع شهقة، وحاولت الإسراع خلفه ولكن الحراس طلبوا منها جواز سفر، ظلت تترجى أحدهم حتى جاءها بالحقيبة..

ضمتها إلى صدرها وهي ترمق السفينة المغادرة..

ثم أزمعت أمرًا.

* * *

في الصباح التالي وجدت "ريم" الصغيرة نظارة بعدسة سميكة وأخرى محطمة مرمية بين هدايا الأمواج بعد عاصفة الأمس..

ارتدتها وركضت إلى والدها ضاحكة، فابتسم لها وهو يرفع النظارة عن عينيها، ويرميها بعيدًا لتلمع للحظات تحت أشعة الشمس وتختفي..

لا يريد لصغيرته أن ترى العالم عبر مثل هذه النظارة.

* * *

... حكايات العودة والرجوع ...



... حكايات العودة والرجوع ...

بسم الله .. واحدة .. اثنتان .. ثلاث .. أربع .. خمس

*　　　　*　　　　*

كان لا يزال نصف نائم عندما كسروا الباب ودخلوا، لم يتحرك من سريره إذ قلبوا الشقة رأسًا على عقب، كان يظن أنه لا يزال يحلم، تجاهلوه إذ جلس على السرير يحك رأسه بأصابعه ويحاول أن يفهم ما يجري حوله بالضبط دون جدوى، لم يبدأ بمقاومتهم إلا عندما أمسكوا به وأخذوا يشدونه للخارج، عندها أدرك أن هذا ليس حلمًا، ربما أدرك أيضًا أن أحدهم يحمل لوحاته الزرقاء تحت إبطه، وأن العرق يسيل على اللوحة ليمزج الألوان ببعضها ويزيدها غرابة.

عندما خرج كانت شمس الصباح لا تزال هادئة، وإن كانت أشعتها تنبئ بيوم حار طويل ..

*　　　　*　　　　*

ست .. سبع .. ثماني .. تسع ..

*　　　　*　　　　*

عندما وصل إلى مركز الشرطة لم يعرف عما يتكلمون بالضبط، حاول أن يفهم ما مشكلتهم وما الذي أدى بهم إلى ذاك الغضب الجامح، وحاول أن يستوعب الغلطة التي وقع بها، في اللحظات الأولى كان يحس بأنه ــ ولابد ــ مخطئ في شيء ما، كان خائفًا، وأخذ يعيد على نفسه أحداث الأسبوع الماضي فوجدها عادية حقًا، ربما أهان أحدا من العائلة الملكية دون أن يدري، ربما أثار الغبار على سيارة لأحدهم إذ يمر بسيارته دون أن يدرك، حاول أن يتذكر حقًا ولكن دون جدوى، جلس يلوم نفسه على قيادته الخرقاء، كان يعرف بأنها ستودي به إلى مصيبة كبرى في يوم من الأيام، ولكنه لم يهتم، كان يحب أن يقود سيارته بأقصى سرعة، تسمح له بإحساس الهرب إياه الذي كان يتمناه طوال حياته، تسمح له بالإحساس بأن لديه القدرة على التحكم بحياته ومماته من جديد، بعد أن أصبح كل شيء من حوله بلا طعم على الإطلاق، ولكن عندما جاءه المحقق حاملاً واحدة من لوحاته عرف بأن

مشكلتهم لم تكن قيادته الرعناء، أدرك عندها أن أيامه في هذه البلاد أصبحت معدودة.

* * *

عشر .. إحدى عشرة .. اثنتا عشرة ..

* * *

لم يعرف بأنهم بعدما أوصلوه إلى السجن وعادوا أدراجهم، قضوا بعض الوقت يتكلمون عن اللوحات التي كانت عنده، يتحدثون عن أجساد النساء العاريات المرسومة هنا وهناك في أوضاع غريبة، ويستغفرون الله العظيم بحثًا عن التوبة لأنفسهم لأنهم رأوها لمرة أو مرتين عندما كانوا يلقون القبض عليه.

بعد أسبوع أو ما شابه كان حارس المستودع يراجع ما لديه من خزائن عندما أدرك أن اللوحات كلها ناقصة إلا واحدة، نظر إليها باستغراب وهو يراجع الأرقام أمامه، كان من المفروض أن تكون هناك سبع عشرة لوحة بالتمام والكمال، قبل أن يقلب اللوحة ليرى ما تعرضه، كان فتاة عارية ملفوفة القوام، تجلس أمام نافذة مغلقة وتنظر عبر ثقوب الخشب إلى الخارج، تأمل لثوانٍ فخذيها المرسومين بدقة، وثديها البارز، ثم وضع اللوحة تحت إبطه ونظر حوله، عاد أدراجه إلى مكتبه، ووضع اللوحة في الدرج السفلي، وأغلق عليها بالمفتاح، قبل أن يتجه إلى مطبخ المستودع كي يعد لنفسه كوبًا من الشاي.

* * *

ثلاث عشرة .. أربع عشرة .. خمس عشرة .. ست عشرة .. سبع عشرة ..

* * *

أعطاه المحامي المرهم المرطب من تحت الطاولة كي لا يراه المحقق، وقال له بإنهم سيرحلّونه في المساء التالي، لم يفهم الأسباب، وسأله إن كان من الممكن أن يظل في عمله، ولكن المحامي قال له بإنها ليست السلطات هي من ترحله، إن الرجل الذي توكل أمر عمله منذ جاء إلى البلاد قد سحب الوكالة، وأصبح الآن رجلا دون وكيل في هذه البلاد، أي أن أي عمل سيقوم به سيكون غير شرعي، لهذا توجب على السلطات إعادته.

نظر إلى المرهم المرطب في يديه قبل أن يدسه في ثيابه الداخلية كي لا يراه أحد الحراس، وشكر المحامي واتجه إلى باب غرفة التحقيق للعودة إلى السجن.

عندما عاد إلى السجن كانت نظرات المساجين الآخرين تكلله إذ يدخل، بحثًا عن بقعة شمس كانوا يحتمون منها من قبل، والآن يبحثون عنها بعد أيام في السجن، يُغلق الباب من خلفهم تاركًا إياهم دون أمل في نور، ثم يجلس بجانبهم في الظلام، يحس بيد تلامس فخذه فيتراجع مترًا إلى الخلف، قبل أن يفكر للحظات، وينظر إلى السواد العام من حوله ليرى صاحب اليد، كان فتى في الخامسة عشرة تبدو على وجهه علامات العصي التي ضُرب بها، ابتسم له واقترب منه من جديد، ثم لم يلبث أن أخذه في صدره، عندها بدأ الفتى بالبكاء.

* * *

ثماني عشرة .. تسع عشرة .. عشرون .. إحدى وعشرون .. اثنتان وعشرون ..

* * *

كان يتوقع أن يجد "منار" في انتظاره في المطار بعد أن طرد من هناك، ولكنها لم تكن، لم يكن هناك إلا صديقه "عبد السلام" وأخوه "باسم"، نظر في عينيهما ولم يحاول أن يسأل، ولم يحاولا أن يفسرا.

عاد معهما إلى منزله القديم حيث استقبلته والدته بالقبلات والزغاريد، بعينين دامعتين وقلب واجف، ضمته إلى صدرها وابتسمت في وجهه وتراجعت خطوة إلى الوراء لتسمح له بأن يتجه إلى الكرسي المتحرك الخاص بوالده ليضمه بدوره، اقترب من والده دون كلمة، ومال عليه وقبّل أصابع يده، فنظر إليه والده بهدوء، قبل أن يدير الكرسي ويتجه نحو غرفة النوم، ويغلق الباب على نفسه بصوت عالٍ كرصاصة.

تربت والدته على كتفه بابتسامة حزينة، وتسحبه سحبًا نحو طاولة العشاء.

* * *

ثلاث وعشرون .. أربع وعشرون .. خمس وعشرون ..

* * *

صحا فزعًا في غرفته القديمة، نظر من حوله ليتأكد بأنه في منزل العائلة، وقام

من سريره مترنحًا كالسكير، قبل أن يفتح الستائر لتدخل أشعة الشمس كماء دافئ على جسده، ابتسم وحك صدره بأصابعه، تراجع خطوة إلى الوراء ونظر إلى نفسه في المرآة، قبل أن يبدأ في خلع منامة أخيه التي استعارها في الليلة السابقة، ويرتدي ثيابه التي جاء بها من السفر.

دخلت عليه والدته وهو في منتصف عملية تغيير الثياب، فشهقت بدهشة، قبل أن توقفه عند حده، وتخرج لثوانٍ معدودة من الغرفة وتعود بثياب نظيفة براقة، وتبدأ بمساعدته في ارتدائها كما في الأيام الخوالي، عندما كان لا يزال طفلاً صغيرًا يحاول أن يتعلم كيفية ارتداء القميص أو البنطال.

أحس عندها بأمان شديد لم يحس به منذ أزمان سحيقة، فضم رأس أمه إلى صدره وطبع على جبينها قبلة، قبل أن يتجه معها إلى الخارج.

نظر إلى غرفة المعيشة التي تجمع أفراد العائلة كلهم، أباه وأخاه وأبناء أخته المتوفاة، قبل أن يتجه نحو سماعة الهاتف ويتصل بالسفارة ليسأل عن حقيبة ثيابه إن كانت السلطات هناك قد أرسلتها بعد أم لم تفعل، عندما لم يلق ردًا من الطرف الآخر تذكر بأن اليوم هو عيد إحدى الثورات المجيدة، فأغلق السماعة وزفر.

* * *

ست وعشرون .. سبع وعشرون .. ثمان وعشرون .. تسع وعشرون.. ثلاثون..

* * *

حاول أن يتصل بـــ "منار" على هاتفها النقّال الذي أرسله إليها في عيد ميلادها السابق، ولكنه لم يتلق ردًا، يتذكر أنه قد طلب منها أن تضع رنة خاصة به على هذا الجهاز عندما أرسله إليها، كانت الرنة هي أغنية "Kiss" لــ Prince والتي لم يكن يعرف معنى كلماتها، ولكنها مرة سمعتها في أحد برامج الأغاني في التلفاز، وتبرعت المذيعة بترجمة كلماتها لجميع من لا يعرف اللغة الإنكليزية، أخذ يتصور هاتفها الصغير ذا الألوان البراقة وهو يرن برنة الأغنية مرة وراء مرة وراء مرة دون رد من أي نوع، قبل أن يقرر أنه قد حان الوقت للقلق، وأنه سيتصل بوالدتها.

عندما رفعت السماعة من الناحية الأخرى تبشّر خيرًا، ولكن الوالدة العجوز لم تكن

تحمل له أنباءً سعيدة، فـــ "منار" تركت المنزل وهربت منذ أكثر من شهرين، الأم المكلومة كانت تلطم خديها وتبكي عندما سمعت الخبر لأول مرة، ولكنها أصبحت متعادلة معه الآن بعد أن حكته سبعة آلاف مرة لسبعة آلاف جارة مختلفة، تردد قبل أن يسألها عن النقود التي كان يرسلها إليها في كل شهر، فأخبرته بأنها كانت تصرف النقود كلها على طالب الجامعة المجاورة "سعد" الذي لم يكمل الحادية والعشرين من عمره بعد، كان يأتي لزيارتهم كثيرًا، ولم تكن الأم تملك حيلة تجاه الفتاة الصغيرة التي اكتشفت ــ فجأة ــ أنها أصبحت امرأة.

دعا للوالدة بطول العمر وأغلق السماعة، قبل أن ينظر إلى الفراغ .. ويبدأ بالضحك دون انقطاع ..

* * *

إحدى وثلاثون .. اثنتا وثلاثون .. ثلاث وثلاثون .. أربع وثلاثون ..

* * *

فرد أدوات الرسم أمامه، وأخرج من درجه القديم بعض الأوراق، وبدأ في إخراج الألوان من محابسها، حاول أن يتكلم مع الألوان كما يفعل قديمًا، حاول أن يرى كل لون وقد انفرد وتمطى وغطى صفحة الرسم البيضاء ليرسم جسدًا جديدًا أو لوحة أخرى، حاول أن يفعل أي شيء، ولكنه لم يملك إلا أن يضع كل الألوان التي وجدها أمامه، ويفرغها على لوحة الرسم البيضاء ليخلق فنًا تشكيليًا لا معنى له، ويلعن الساعة التي أحب فيها الرسم.

أحرقه ظهره بعض الشيء، فاتجه إلى غرفة نوم والديه، طرق الباب ونظر من فتحة الباب إلى والده النائم ووالدته الجالسة على الكرسي أمامه، طلب منها أن تأتي لمساعدته فاستندت إلى السرير وقامت، أحضرت المرهم المطهر، وخلع هو قميصه، واستلقى على بطنه.

* * *

خمس وثلاثون.. ست وثلاثون.. سبع وثلاثون.. ثمان وثلاثون.. تسع وثلاثون ..

* * *

إذ تضع والدته المرهم على الجروح الملتهبة في ظهره، كان هو يتذكر ــ رغم

محاولاته ألا يتذكر ــ تلك اللحظة التي شقوا بها قميصه تحت حر الصحراء، كان هناك رجلان يشهدان، ورجل مغطى الوجه يمسك سوطًا بيده، وكان هناك قاض يقف هناك بعمامة ويقول له :

ــ حُكم عليك بأربعين جلدة بتهمة نشر الفساد والتحريض على الرذيلة .. نفذ الحكم ..

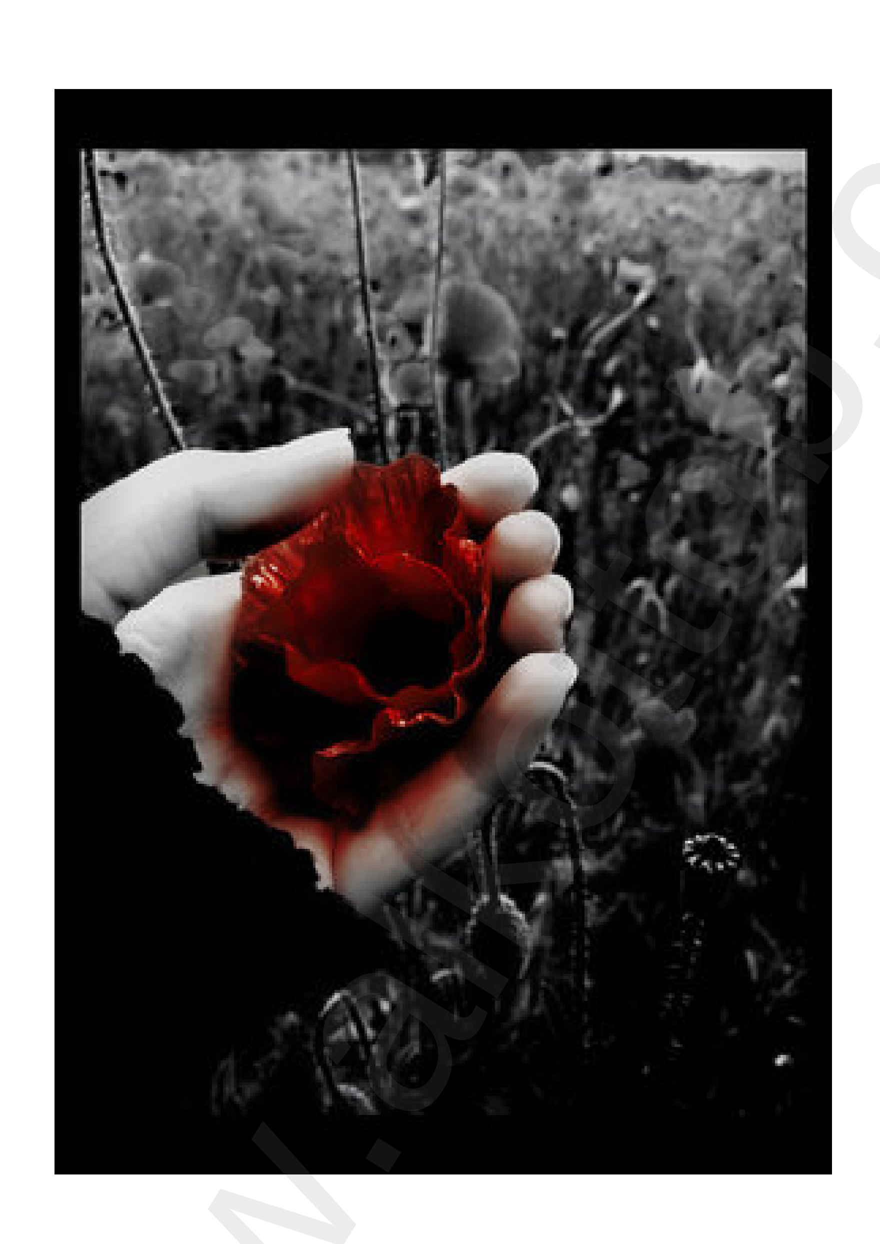
ورفع الرجل السوط بيده اليمنى .. وبسمل وبدأ يعد ..

* * *

أربعون ....

* * *

... حكاية يـــــم ...



... حكاية يم ...

بعد أيام عذاب، يأست فيها من أنفاسي الخامدة، بنيت حجيرة، طليت جدرانها بالسواد، أقفلت أبوابها برخام حزين، واخترت حجرًا أصلد ألف مرة من عذاباتي، وبدأت النحت ..

الدموع تحفر الملامح، تخلق الشفافية للوجنتين، وتلون الشفاه، تنحت أطرافًا من الأنف، أدق من ألف إزميل يغرس في الوجه، وأشد إيلامًا.

عرفت ذلك وأدركته، وأنا أرمق الدموع تتسلل من حيث رسمت عينيكِ يا "يـــمّ" ..

اصبري يا حبي .. ألف صبر ..

ساعات .. أيام .. قرون وأنتهي.

نسيني البشر ألف عام في حجيرتي، رموا على أبوابها ترابا، نسقوه، بنوا منه هرمًا، غطوه بحجارة ..

حجارة تطغى على حجارة، وأنفاسي تضيق، تشمئز من الهواء، تتلهف للفرار، تتمنى أن تخمد.

صبرًا يا "يـــمّ" .. ضربتا إزميل أخرى لا أكثر.

ها هو ذا وجهكِ يولد، طوق اللؤلؤ على صدرك ، والشال الأخضر يضم خاصرتكِ، قدميك في الخف المقصب ، وخصلات شعرك التي تغطي كل ركن.

ثم غرست في أحجارك نصف قلبي .. قد انتزعته لك منذ سنين ..

تتنفسين بدلاً مني الآن ..

تصرخين، يتهدم الهرم من فوقنا ويتفتت كرحم، نولد.

تخرجين إلى العوالم الخارجية، وترمقين ألواننا الجديدة، تكرهين الأسود، تعشقين الورديّ.

وتضحكين ..

وعلى السهول تداعبين بأناملك الرمال، فتولد دوامة خضراء تخلق لنا جزيرة.

أغرق في خضرتك، فراشة تقف على طرف سنبلة، تغرقين.

لم يعلمني أحد قبلك كيف أدفع نصف القلب الذي يسكن صدري كي ينبض.

لم يجعل أحد قبلك الدم الهادر في عروقي أبديًا ناصعًا لا ينضب.

رمق البشر أعجوبتي، بنوا لها مذبحا، معبدا، قدموا لها القرابين، ترفضين كل ذا وتطالبيني بالرحيل ...

نحزم أمتعتنا ، ونغادر، نريد أن نزور البحر، هو جدّنا.

أحملكِ في عربة قش، فتنامين على ظهرك، تحسدكِ الشمس فأحرقها.. يضحك لك القمر فأرديه قتيلاً.

خلق البحر ــ جدنا الأكبر ــ موجة جديدة يسألني عن أحوالي، وأخرى تسألني عنكِ يا "يــمّ" .. أخبرت الجدّ عنكِ مليكتي ..

ابتسم .. دعانا لقراءة ما تكتبه النجوم من قصائد حب إذ تطفو على سطح أمواجه.

خافت حبيبتي .. خافت وتراجعت خطوات مترددة، والخلخال يرتعش حول قدميها.

تسألني بهيبة عن الموت، عن الرجفة النهائية التي لا يتلوها شيء، عن نصف القلب الذي قد يعلن عصيانه، ويتوقف عن الخفقان.

أخذت أطراف أناملكِ، قبلتها، جمعتها باقة من النور في كفي فتسللت أشعتها من بين أصابعي، سحبتها خطوات متمهلة إلى حيث تداعب الأمواج قدميك ..

طالبتك بأن تثقي بالبحر، ثقي يا "يــمّ" بجدنا الحبيب .. أعلني اطمئنانك له، عندها، لو غرقت، لن ينسى البحر ثقتنا هذه ، وسيعيدكِ إليّ في صدفة.

اقتربت، غصتِ خطوة، أخرى .. فقد الشال الأخضر الذي يلف قدميكِ لونه مع ملح البحر، وعاد إلى اللون الحجري القديم، لكنني لم أعر الأمر اهتمامًا، علبة الألوان في المنزل .. ما أقرب المنزل ..!

غُصتِ أكثر، بكيتِ، سألتِني الاقتراب، سألتِني الهرب، سالت دموعكِ وسقطت لتخلق دوامة في موج البحر، هدهدتكِ يا "يــمّ"، وتركت أناملكِ مندفعًا إلى قلب البحر، وطالبتك بالاقتراب مني ..!

بكيتِ أكثر .. ناديتني .. مددتِ ذراعين عاجزتين إليّ، وتغطتْ وجنتيكِ باللون الأزرق، يسيل مع الدمع من عينيك .

لكنني ضحكتُ ..

تعثرت وقمت واقفة .. سالت الدموع على وجهكِ أكثر، غطت ملامحكِ، حفرت

جوانب شفاهكِ كأزاميل، ضَحكتُ لخطواتكِ المتعثرة.
ماتت الضحكة في حلقي، غصصت بها كأنما هي خفاش يداعب حنجرتي، عندما اختفيت من أمام عيني.
أسرعت نحوكِ ، لكن أمواج البحر صدتني، حملتني مقيدًا بالزبد وأوتار الإسفنج ورمتني على الشاطئ كرسالة من غريق.
صرخت في الجدّ، لكنه أعلن تبرأه مني، قال أنه نصبكِ حوريّة، واستحل حجارتكِ إلى الأبد.
صرختُ أكثر، فتوقف عن الإنصات إلي وهاجت أمواجه وناحت لتخفي صخبي.
أحسست بنصف قلبي في صدري يخفت، ثم مات، توقف الخفقان في نصف قلبكِ إذن .. فاهتز صدري له اهتزازة أخيرة ، واستكان بعد أن نسي كيف يتنفس.
على رمال البحر ، جلست .. أفتح كل صدفة .. أتأمل الفراغ الأسود في جوفها.
وفي وجهي ... غرست الإزميل.

... ناتالي ...



... ناتالي ...

لم أعرف متى خلعت قناع المهرج ، وهبطت شوارع مدينتي الحزينة بحثًا عن ظلي الذي ضاع مني ..

ولم يكن أمر إيجاده شيئًا سهلاً، فأمواج المتلاحقين كانت تدافع كتفي ، وأصواتهم كانت تحتل مساحات أفكاري .. دوائر متلاحقة من أرواح تتبادل الأفكار والكلمات والأحلام .. والدموع أحيانًا .. كلها تحتل حياتي للحظات بسيطة قبل أن تختفي من عوالمي ..

أسترق السمع أحيانًا إلى الحوارات المتبادلة ، القصص المقطوعة من طرفيها ، أحس بها كأنما هي تقليب ملول بلا معنى لمحطات التلفاز، مشاهد متلاحقة من حيوات لا أعرف عنها إلا لحظات اصطدام الأرواح مع بعضها في طريق ضائع الاتجاهات.

كلها أقرب إلى همسات تتسلل إلى عينيك، فتراها .. لا تسمعها ..

السيدة العجوز التي تضع أحمر شفاه رخيصا فاقعا على شفتيها، وتزيد من مساحته على أطراف فمها كي توحي بحجم غير حقيقي لشفاه تسللت إليها عوامل التعرية فأتلفتها ، تمشي متهدلة ، تتكلم عن زوجها الخائب لزميلتها .. وينقطع الحديث مع صرخات الشاب الذي لم يتجاوز مرحلة المراهقة .. يؤكد ــ بحركات متلاحقة من ذراعيه متصنعًا بها شكل مدافع رشاشة ــ أنه قضى على كل زملائه وفاز بكل شيء في اللعبة الأخيرة.

ضجيج .. ضجيج متلاحق متتابع .. مرعب .. قبل أن أسمع الصوت الدافئ لامرأة تعرف ماذا تريد .. يهمس باسمي ..

ــ يا "فجر" ..!

استدرت لأنظر إليها .. تلك التي كانت يومًا طفلة بضفيرتين، تنظر إليّ الآن وشعرها يتطاير أحلامًا رمادية من حولها .. ترتدي قميصًا بألوان الأحلام .. وتمسك حقيبة ملونة كحقائب الأطفال .. تبتسم فيتلون وجهها بقوس قزح مائل إلى الزرقة .. تبدو للحظات أنها الشيء الوحيد الملوّن في عوالم الطرقات من حولي..

تقترب مني "ناتالي" .. ترفع إليّ نظرات سعيدة .. وأصابع خجلى تبعد خصلة متهدلة من الشعر عن عينيّ الحزينتين .. تقول :

ــ لازلت حزينًا يا "فجر" ..!

ــ لا زلت "فجرًا" يا "ناتالي" ..!

* * *

كانت طفلة ذات ضفيرتين، وكنت طفلاً بعينين حزينتين .. لعلهما كانتا كذلك منذ تعلمت أن أكذب على أفكاري بأن الدنيا ليست دائمًا مرتعًا للأفراح .. حتى أنني بدأت أصنع مأساتي بنفسي ..

تسللت ذات يوم إلى عالمها الصغير .. أو لعلها هي من تسللت إلى عوالمي الصغيرة .. هذا لا يهم .. المهم أن عالمي وعالمها في تلك الأيام كانا أصغر من أن يتسعا إلا لشخص واحد .. أو لعلهما كانا مهما توسّعا .. لن يسعا إلا طفلاً واحدًا..

كانوا أيامها يطالبونني دائمًا بأن أذهب إلى النوم مبكرًا .. أكثر من كل الأطفال .. لعل هذه مأساتي الصغرى .. لم أكن أملك أن أحلم .. لأنني كنت دائمًا مجبرًا على النوم إجبارًا ..

ولكنها .. عندما زارت عوالمي .. بدأت أتعلم أن أجبر نفسي على الحلم ..

المشكلة أن هذا علمني كيف أجبر نفسي على الكابوس أيضًا ..

* * *

على طاولة محايدة، خشبية تتبعثر عليها حفريات تركها من زارها قبلنا ها هنا، أسماء محبين وأصدقاء، يتركون أسماءهم على الطاولة.. ناسين ــ أو متناسين ــ أن الأسماء ليست مهمة في عوالم الحزن ..

ــ لا تزال تهوى زراعة الدموع في أوراقك القديمة يا "فجر".

ــ لا زلت أحب التمثيل بجثث دموعي يا "ناتالي" .. حتى أنها فقدت حقيقتها، ولم تعد دموعًا تراجيدية ..

مدت أصابعها تبعد أصابعي المضمومة عن بعضها، تحسست كفي المفرودة ، وهي تنظر إلى اللامكان .. تحلم باللون الأزرق ..

ــ لا يزال كفك مستحيل القراءة يا "فجر" ..
ــ لا أزال بلا مستقبل حقيقي كي يُقرأ يا "ناتالي" ..
نظرت إليّ .. ولمعت عيناها بدمعة .. مالت على خدها .. تدحرجت .. سقطت في فنجان القهوة على الطاولة فتأرجح أحلامًا سوداء ..
وفي كفي .. زرعت وردة زرقاء ..

*   *   *

أذكر عندما بكيت أول مرة أمامها .. كان الشعور مزيج مر من الخجل والراحة والحزن والأسى .. أخذتني رشفات الدموع بعيدًا .. وكانت "ناتالي" تحاول أن تواسيني .. أن تجد ما تقوله لي .. فلم تجد إلا أن تفك الشريط الحريري الذي يلف خصلات شعرها في ضفيرة .. وتمسح به دموعي المتلاحقة ..
ــ دعنا لا نفكر في نهاية .. رجاءً يا "فجر" ..
من يومها .. حافظت على أن أجد مناديل في جيبي كلما احتجتها .. وحافظت "ناتالي" على أن تبقي شعرها مفرودًا دون ضفائر ..

*   *   *

لطالما حلمت أن تحملني الجاذبية الأرضية بسرعة قصوى نحو أسفلت الشارع تحت منزلي، كي أتخلص من عوالمي المتشابكة التي تعلمت أن أعقد خيوطها وأترك للآخرين عذاب حل هذه العقد ..
لكن منظر الأسفلت القاسي كان يرعبني، وأحلام يقظتي كانت تثير جنوني، لهذا كنت أعشق ركوب المصاعد الكهربائية، ربما هو تدريب بطيء على فكرة الانتحار .. أو لعله أسلوب أحمق آخر من أساليبي الخرقاء في تعذيب الذات .. أنتظر اللحظة التي ينقطع فيها حبل المصعد فأسقط بلا هوادة إلى الأسفل المحبب..
بحت بكل هذا إلى "ناتالي" ونحن نهبط في المصعد، فضغطت زرًا دون أن تنظر إليّ .. تجمد المصعد في رهبة، وأصدر أصواتًا حزينة خرقاء .. قبل أن يتوقف..
ــ ابكِ يا "فجر" ..
ــ لم أعد أجيد البكاء يا "ناتالي" ..
ــ ابكِ يا "فجر" ..

ــ لم أعد أملك البكاء يا "ناتالي" ..

ــ ابكِ يا "فجر" ..

ــ مللت تمثيل البكاء يا "ناتالي" ..

ــ ابكِ يا "فجر" ..

ــ كفى يا "ناتالي" .. كفى ..

بكيت .. بكيت كطفل فقد أحلامه الزرقاء .. كطفل تحطم على أعتاب جدار النوم وسقط .. بكيت حتى غاصت عيناي في محجريهما .. قبل أن أحس بها تضم رأسي إلى صدرها .. وتهدهدني ..

وعلى جبيني .. طبعت قبلة ..

* * *

في ذلك الصباح .. رسمت لي "ناتالي" ظلاً جديدًا ، وحطمت قناع المهرج .. وضمت أصابعي بين أصابعها عبر طرقات الحياة ..

فصنعت من شعرها ضفيرة ..

***

... لحظة سلام ممتنعة الوصول ...



... لحظة سلام ممتنعة الوصول ...

إذ أغادرك، وأخذ طريقي خارجًا من المنزل، بدأت أحس بغرابة الموقف من حولي.

فقد بدأت أشعة الغروب بالظهور من جديد من عمق الأفق الغربي، شعاع يتلو شعاع أخذ يظهر من خلف الأفق الضامر قبل أن تبدأ النجوم بالفرار إلى ملاجئها الليلية مستغربة الموقف بأكمله، ويقرر القمر الإمتناع عن العمل لهذا المساء.

شعاع يليه شعاع أخذوا يتشاجرون مع السحاب التي تجمعت في محاولة بائسة أخيرة كي يمنعوا معجزة من الحدوث، إلا أن الشمس تتدخل بجبروتها وتحطم سحاب الغروب لتشرق ــ من الغرب ــ عائدة إلى السماء.

أخذة بالتصاعد أكثر فأكثر إلى مجراها المعكوس، بدأت الشمس المتأففة بإلقاء أشعتها على وجوه البشر الذين أغلقوا أبواب منازلهم بالمفاتيح وظهورهم تطل نحو الشارع، قبل أن يسرعوا ماشيين إلى الخلف عائدين إلى مشاغلهم اليومية.

ورغم أن الشمس ــ من تعبها إذ تعمل ليوم كامل دون استراحة ليلية ــ كانت حاسمة قاطعة، تحاول إطفاء أضواء المساء من على بشراتهم الشاحبة، إلا أن وجوههم ظلت مطأطئة في تعب، وعيونهم ظلت زرقاء باردة، وهم يركبون سياراتهم الفارهة، ويبدأون بقيادتها إلى الوراء.

أما أنا، فظللت أمشي وأمشي نحو الأمام، بحثًا عن طريقي.

*   *   *

عندما وصلت إلى أستديو التصوير وجدت فتيات الإعلان النحيلات يجلسن خلف المرايا، يلمسن بشرتهن الخالية من مساحيق التجميل بمناديل معطرة، وإذ يميلون بالمناديل على وجوههم ماسحين ألوان بشرتهم الطبيعية، وطابعين الأحمر والأزرق والبنفسجي على عيونهن من مناديل كانت مبللة بألوان مساحيقهم عندما رأيتها، أما الآن فتعود إلى بياضها الخلاب.

ورويدًا، بدأت ألوان شفاف فتيات الإعلان النحيلات تعود إليهن، وظلال عيونهن الإصطناعية تبهر الأبصار، وأصبح النظر إلى وجوههن التي نصعت

بمستحضرات المبيضات متاحًا، قبل أن يتجهن نحو موقع التصوير.

وهناك تجمرهن أمام آلة التصوير الضخمة التي احملها، فتتطايرت الصور التي كانت على الأرض مبعثرة، حتى وجدت طريق عودتها إلى داخل ألة التصوير الخاصة بي بعد كل لمحة ضوء.

صورة وراء صورة تترك الأرض، وتتهادى متجهة عكس إتجاه الجاذبية كأنما ورقة شجر تقع إلى الأعلى، حتى تجد مستقرها في ألة التصوير الخاصة بي.

ثم تتجه جميلات الإعلانات إلى حيث يعيدن مساحيق المكياج التي على وجوههن إلى علبها، مستخدمين فُرشًا ملونة يمسحونها على خدودهن وشفائفهن، فتعود وجوههن إلى ألوانها الطبيعية.

تبتعد النحيلات تاركة أثوابهن جديدة معلقة لم تُلبس من قبل، ويبدأ العمال البسطاء في تفكيك الديكور السماوي الذي كان من حول فتيات الإعلانات، قطعة وراء قطعة ... بالعكس.

وأنا لا أزال أمشي نحو الأمام، أمشي ووجهي يحمل نظراتي الشاردة المتفحصة لكل من يمشي بالعكس، أبحث عن طريق لا أجده.

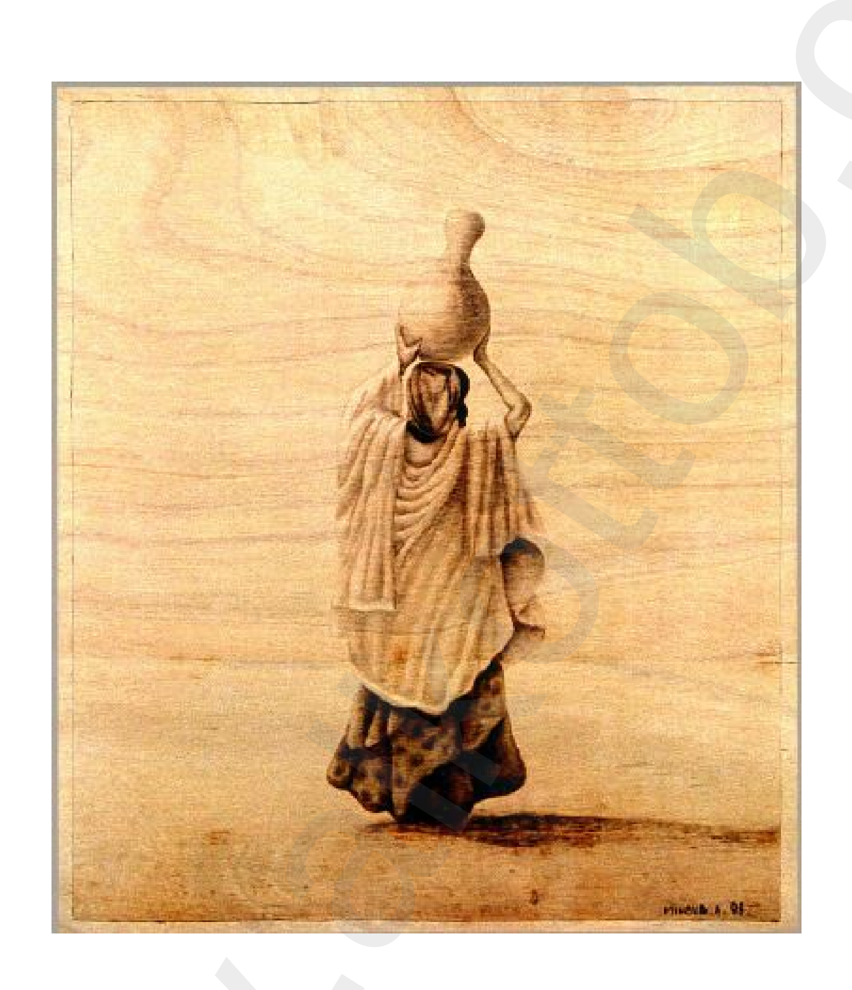
* * *

وإذ ما أدخل المفتاح في ثقب الباب ناظرًا إلى الشمس التي بدأت تلملم أشعتها استعدادًا لعملية شروق معكوسة، وافتح الباب تاركًا خلفي البشر الذين بدأوا يعودون إلى منازلهم فاتحين أبوابها من خلف ظهورهم، أدرك أن هذه هي لحظات ضياعي الأخيرة.

ثم، إلى غرفة نومنا اتجهت، أرمق نومك كملاك، قبل أن أخلع معطفي وألقي جسدي المتهالك بجانبك، وأسند رأسي إلى صدرك.

عندها ــ يا حبي الأوحد ــ سيتوقف الزمن لدقيقة أو دقيقتين، وتثبت عقارب الساعة التي كانت تمشي بالعكس طوال اليوم السابق، قبل أن تبدأ بالحركة نحو الأمام من جديد، عندها ــ وبينما أغيب أنا بين الصحوة والمنام ــ يطلق البشر زفرة ارتياح من حولنا، قبل أن تبدأ الشمس بالإشراق من جديد، ويعود البشر للمشي نحو الأمام، بحثًا عن احلامهم.

... صحراء على أعتاب باريس ...



... صحراء على أعتاب باريس ...

تتسابق الرمال لالتهام بشرته أكثر، تستقر في تجاويف ألمه أكثر، تجرح للحظات أطراف حدقتيه الزرقاوين فيغلق العينين في ألم، قبل أن يتذكر، عندها يعاود فتح عينيه، يعاند الريح، تخترق الرمال ألمه وتستقر، يتأوه، يتذكر فيتوقف عن التأوه، يتنفس بحرقة ..

تدمع عيناه ..

ثم تهدأ الريح فيخترقها وجهه ..

مكفهر كمن لا يحلم إلا بالكوابيس .. وجه أسد عاجز ممزق الروح .. أشعث .. مبعثر كأرنب خجول ..

تمر الريح للحظة أخيرة .. تمد أناملها محركة الرمال في دوامات صغيرة .. يضغط عليها بالحذاء فتختفي، تعيد رسم ملامحه من جديد، وتبتسم مصفرّة ..

ثم ترحل.

وتغيب الشمس ..

* * *

تريث إذ ماتت الأضوء، تجمع حول نفسه، روح وحيدة بين كثبان رمال ولدت منذ لحظات..

ظهر أول نجم فنجم آخر، تصاعدت وتيرة النجوم وتناثرت، رسمت قناديل المساء الاسم فتذكر، أغلق عينيه وتوقف عن تأمل السماء ..

رفع صوته بأذان العشاء، تحشرج الصوت المتوحد عندما انتظر صدى حزيناً التهمه الأفق الشاسع فلم يرجع ..

صلى .. أشعل نارًا .. تصلّى ..

رمق الرب الفضي إذ يولد .. يكبر .. يتسلط ملكوته على الأفق .. يتذبذب .. يتزاحم، ينفصل عن الخط بوجع وأنين غير مسموع، يستدير ويتحول ضياؤه قنديل سماء جديد، يبتعد رويدًا كحلم أزرق بارد .. يبتسم ..

تذكر عندما سألته العرافة عن برجه، أشار يومها إلى السماء فهزت رأسها، قالت

إنه هناك .. في قلب مغارة السماء .. لا يمكن للنجوم أن تلتقي يومًا ..

تقرأ كفه، وتحذره ــ ألف مرة ــ من الفتاة ذات البشرة البيضاء .. فلا يسمع ..

رمى حطبًا جديدًا للنار وذابت عيناه مع الوهج .. تذكر .. تذكر الاسم .. السيجارة الطويلة والدخان المتشاجر .. الضحكات التي ولدت وماتت في لحظة .. وألوان قوس قزح .. والقبلة ..

يسجد، تنهمر دموعه فتشربها الرمال، ينشج، يرفع رأسه عن الأرض فتهطل حبات الرمل الناعمة من شعره وجبينه على الحاجبين ..

يمد يده إلى النار، ويلتقط جمرة حمراء تلتمع، يبتلع الألم مع الألم ويصرخ ..

عندها فقط تهدأ الذاكرة القديمة ..

* * *

يتذكر أنها قالت له "Pardon" ناعمة إذ عبرت للحظة حارقة بين جسده وطاولة البار الباريسي ..

ثنايا جسدها تغطيه لثانية، العطر يذوب من شعر الحسناء منسدل كنهر "سين" جديد على كتفيها، همسات الهواء إذ يغلف جسدها تحرم عليه لمسها، تبتسم لمن تذهب لتجالسه على الطاولة فتنعكس ابتسامتها للحظة واحدة في عينيه الزرقاوين..

ثم تغيب.

تقف في علياء أمام طاولة القمار، تتابع الكرة الصغيرة إذ تدور في حلقات مشكلة ألف كرة من حولها، تمد أنامل ناعمة لتحرك بخفة قطة أقراصها الملونة من رقم لرقم .. تخسر .. تخسر كثيرًا وتنسى كثيرًا ولكنها تعاود المحاولة ..

تأخذ نفسًا من سيجارة جانبية .. ثم تطلق دوائر دخان زرقاء .. تتابعها بعينيها للحظات ثم تختفي طبقات الدخان فتنكسر النظرة ..

تنطفئ السيجارة فتمد يدها إلى علبة سجائرها ، تستدعي سيجارة أخرى ، فتمتد يد بولاعة من اللامكان .. تبعد الولاعة بحركة ناعمة بظهر يدها وتحاول إشعال سيجارتها بولاعتها دون أن تهتم بأن ترى صاحب اليد الذي قنط وتراجع ، تذوب اللحظات أمام عينيه المتابعتين لكل تفصيلة حركة ..

يقترب كحلم .. يمد يده لها بولاعة فضية .. تنفث لهبها كتنين .. تنظر إليه .. تدع

له قيادة سيجارتها ..

يبتسم لها ..

"لين" .. تقول إن اسمها "لين".. فيحترق بجمال الاسم الذي يحمل رنين القمر ..

* * *

يشهق .. يتراجع للوراء خطوات مبتعدًا عن النار .. يقاتل شروده في لحظات ضياع ..

لا يجب أن يذكر اسمها .. لا يجب أن يفكر بذلك القمر الفرنسي .. لا يجب أن يحلم به .. لا يجب أن يشرد من أجله ..

يسقط أرضًا .. يتدحرج .. يستقر في قعر وادٍ بين كثبان الرمل، فيتأمل السماء ليرى القمر مطلاً عليه، ساخرًا من هربه، فيغرس أصابعه المحترقة في الرمال .. يضغط عليها فيتكاثر الوجع، يتأوه كذئب جريح، فيرى في حركاته السكرى القمر وهو يطل عليه من جديد ..

يصرخ، يقف ويعوي في وجه القمر، يدور حول نفسه في جنون ..

ينكسر ..

يميل على ركبتيه .. يبكي .. يبكي ..

ثم يعود إلى حيث النار ..

* * *

ضمها لأول مرة على قمة برج إيفل، تسللت أصابعه حول الخصر النحيل ثم تشابكت فوق حرير الثوب الأحمر، شفتاها كلون الكرز ــ تبتسم له ــ وتمسح وجهه بأصابعها، تقول بإن عينيه الزرقاوين كسماء الصحراء التي لم ترها من قبل.

يبتسم لها، يشدها أكثر إلى صدره فتغوص في أفكاره، تحمله معها بترانيم تهمهم بها فلا يفهمها، تأخذه إلى حيث تولد القلوب، يتصورها تارة المحبوبة الفرنسية ذات أثواب الدانتيلا، وأخرى الحسناء التي ستزين عالمه المتوحد في الصحراء .. يتصورها تحمل له جرة الماء وترسم الوشم على الذقن .. وتبتسم ..

فيبتسم ..

يمد يده أكثر إلى شعرها فتتراجع .. تتبسم له وتهمس في أذنه :

ـــ دومان .. demain ..

غدًا ؟!! أننتظر يا جميلتي إلى الغد ..؟!

يمد يده فتمد يدها .. وتغرس أنيابها في صدره ..

* * *

وتغرس أنيابها في صدره فيصرخ ألمًا ويقفز من بين أحلامه .. يبعد الحية الجشعة عن صدره قبل أن تحقن المزيد من السم، يرميها في بقايا النار الحارقة، يتلوى الحيوان بجنون .. يفح .. يزأر .. يتحول شعلة مجنونة كشيطان من جنهم .. قبل أن يقفز من النار ويحفر لنفسه في الرمال ويختفي، تاركًا خلفه خيط لهب وخيط دخان وخيط صراخ ..

يلهث بألم، يغرس أصابعه في الجرح بحثًا عن نسيان جديد، يتأمل أصابعه المغطاة بالدم، تتمايل قطرة الدم لاهثة على الأصبع، وترسم خطًا باردًا أسود على الكف .. الدم الأسود فأل سيء ..

يترك النار يترك كل ما حوله ويقوم، يتأمل الصبح الذي ما كاد يظهر، يسمع أذان الفجر أو لعله هو من أذنه، يتحامل على نفسه ويخطو خطوة فوق كثبان الرمل .. وخطوة أخرى ..

يصعد أكثر .. يتمتم لنفسه أنه حتى ولو أضاع الليل، فسيبقى صوته مسموعا كحلم، سيبقى هو الصحراء نفسها ..

يمشي خطوة ويودع لحظة، يرسم لنفسه خطًا جديدًا بينه وبين "باريس"، يتأمل الشمس التي تُخلق .. يستودعها ويحلق ..

يتأمل السماء كطائر يرتفع .. أو لعله يقع على ظهره متراخيًا فحسب ..

* * *

وتدور الكرة البيضاء الصغيرة مرة أخرى ..

تتأملها الحسناء بنظرتها اللامبالية، تدور ساحبة معها المزيد من الأقراص الخضراء والحمراء التي يجمعها من فوق الطاولة المرقمة رجل في الخمسين.

تبتسم له إذ يشتري لها المزيد من الأقراص، وتحرك الكأس على شفتيها بابتسامة

لعوب .. تحرك شعرها فيخفي الوجه للحظات .. يمد يده ويبعد خصلات الشعر فيكتشف تحتها نظرة قلقة تحاول الهرب من ملاحظته، لكنه يلتقطها قبل ثانية من اختفائها ..

يراقب الأرقام .. يراها تخسر .. تخسر كثيرًا وتنسى كثيرًا ..

تمد يدًا مرتعشة لتلتقط سيجارة جديدة من علبة سجائرها، يمد يده ليشعل لها بولاعته الفضية فتدفع يده بظهر كفها، تتحطم أحلامه الزرقاء ، يحس بأنه ينأى عنها، يبتعد، في حين تغيب هي بين الجموع .. كحلم بعيد تغيب ..

تتأمل بقع الدخان التي تتصاعد، تهرول نظراتها خلفها، تحاول تصنع اللامبالاة إذ تخسر أكثر .. تشرب كأسًا أخر وتهمس من بين الشفاه ترانيم باردة ..

تمتد أصابعها إلى سيجارة أخرى فتمتد ولاعة ذهبية تخطف لها بصرها فتسمح ليد صاحب الولاعة بالاقتراب من جمالها .. لا تمانع ..

يقترب هو منها في حركة حادة، ينظر إلى عينيها ويكاد أن ينطق عندما نطق الخمسيني من خلف ظهره يسألها :

ــ هل من مزيد من الرهانات ؟!

ترمقه بعينها الفيروزية للحظة قبل أن تشير إلى من كان رجلها وتهمس :

ــ أراهن بهذا ..

يومها لم تتسع له شوارع باريس، ولم يكف نهر السين لمسح دماء كرامته عن أراضي فرنسا.

* * *

تتماوج أفكاره .. يصحو .. يفتح عينيه على خيال لا ملامح له فيغلق عينيه من جديد .. يعاود فتحهم فتُخلق الملامح .. يخفي عينيه بيده لثوان ..

من بين الأصابع المرتجفة يرى ابتسامة، وغطاء رأس عربي، خصلات سوداء هاربة من بين غصون القماش، بشرة سمراء وذقن موشومة ..

وحسناء ...

هي حبيبته القديمة .. كذا تراءت له للحظات ..

ثم فكر .. لعلها ليست هي.

... انكسارات مخفية وأساطير محكية ...



... انكسارات مخفية وأساطير محكية ...

سألتك أن تقول لي كيف تبدأ الحكاية كي أستطيع أن أحكيها لك قبل النوم ..

فقلت لي إنها تبدأ فحسب ..

سألتك أن تكتب لي السطر الأخير ..

فقلت لي :

ــ لا أحد يعرف النهاية .. أنت تكتب البداية لا أكثر ..

* * *

أتنهد وأقول لك إن حورية البحر كانت تحاول ارتداء أصدافٍ جديدة على صدرها، كي تخفي عنك زهور بحر لم تحلم برؤيتها من قبل، ولكنك حاولت جاهدًا أن تستسمحها لتسمح لك بأن تقّبل زهور البحر تلك، وتحاول جاهدًا أن ترسم ابتسامة حزن على وجه لم يعرف إلا الدموع طوال الوقت، لكنها رفضت وسألتك أن تبتعد، قبل أن ترفع ذيل السمكة وتعود إلى الماء حيث يسكن جدها "سيبستيان" ملك البحار السبعة.

قاطعت نفسي عندما عرفتُ سخف الحكاية وقلتُ لك بإن حورية البحر كانت جارتنا "حسناء" وإنها في تلك الليلة صفعتك على وجهكْ عندما حاولتَ أن تتلمس جمالها، فقُلتَ لي أن أقول لك ما الفرق ؟!!

طلبتَ مني أن أعيد ترتيب الحكاية فوافقتُ ..

* * *

قلتُ لك :

ــ أتمنى أن تعيش في أرض الواقع مرة، تبتعد عن خيالاتك وتعيش معنا في عالم البشر .. أن تكون رماديًا واضحًا ..!

فقلت لي :

ــ الأشياء قد تكون بيضاء وسوداء في الوقت نفسه، دون أن تحتاج لأن تكون رمادية واضحة !!

* * *

أتنهد وأقول لك إن حورية البحر كانت تحاول ارتداء أصدافٍ جديدة على صدرها، كي تخفي عنك زهور بحر لم تحلم برؤيتها من قبل، وعندما اقتربت من عينيها نظرتْ إليك وابتسمتْ، شعرها الأزرق تهدل أوراق أشجار نهرية لا تعرف أسماءها، وعيناها اللتان تحملان حزن الأسماك، وتدمعان ماء بحر طوال الوقت كانتا تتأملان أصابعك بخفر، عندما مددت يدك تحاول التقاط ابتسامة جديدة لكائن خرافي ..

عندها خرج لك جدها "سيبستيان" من تحت البحار يحمل رمحًا وثلاثة سيوف، ويقود عربة تجرها الدرافيل، حَاولتَ جاهدًا أن تقاوم الموجة العالية التي اكتسحت أفكارك وقَطعتْ عنك أحلامك الزرقاء، ولكنك لم تستطع إلا أن تدفع المياه عن وجهك كي يستقر لك مقام في حياة البحر ..

قاطعت نفسي عندما تذكرت أحزانك القديمة، وقلت لك بإن حورية البحر كانت طفلة زرقاء الشعر وحمراء العينين تبكي من آثار ملح البحر، وكانت تغرق في عمق بحر لا تعرف له نهاية عندما حَاولتَ أنت أن تنقذها، وأنك عُدتَ صفر اليدين، في حين ظل والدها لسنوات يقفُ على الشاطئ ينادي باسمها ويحاول جاهدًا أن لا ينسى رمي قطعة حلوى من النوع الذي تحبه في البحر.

قلت لك بإن اسمها كان "ريم"، وأنها كانت تحب الحلوى، وقلت بإنك لم تجدها عندما قاومت أمواج سيف "سيبستيان"، وإنك عدت تبكي كأنما هي ابنتك !

قلت لك بإن والدها مثلك، يعرف بأن قطع الحلوى مهمة جدًا في عالم البحر الذي ذهبت إليه الفتاة، وقُلتُ لك بإنك كُنتَ تجالس والدها في المساء على المقهى الذي يشرب فيه فنجان قهوة عربي تلذع اللسان، وإنه كان يشتكي لك موج البحر الذي يرفض أن ينقل رسائله إلى ابنته يرميها في زجاجة، فيعيدها موج البحر له.

طَلَبتَ مني أن أتوقف عن دندنة آلام الواقع، فطَلَبتُ منك أن أعيد سرد الحكاية ... صَمَتَ أنت .. فبدأتُ أنا الكلام من جديد ..

* * *

قلتُ لك :

ــ أتمنى لو أنك تطلبُ مني أن أتوقف عن السرد !!

فقُلتَ لي :

ــ كنت ستكف عن الكلام من نفسك لو أنك لا تريد أن تسمع ما تقوله !

* * *

أتنهد وأقول لك إن حورية البحر كانت تحاول ارتداء أصدافٍ جديدة على صدرها، كي تخفي عنك زهور بحر لم تحلم برؤيتها من قبل، عندما تجاهلتها تمامًا، وتخيلت نفسكَ لم ترها، أو أنها مجرد أضغاث أحلام لرجل يقضي حياته يمشي على شاطئ بحر لا يدرك أسباب تعلقه به، وعدت إلى سيارتك وقررت العودة إلى المنزل.

في طريقك إلى المنزل كانت حياتك تمر أمامك عبر شاشة فضية رسمتها الأمطار على زجاج النافذة، رويدًا رويدًا غطت الأمطار زجاج النافذة فوجدت أن الحل الوحيد أمامك هو أن تتخيل أن حورية البحر أصبحت بجانبك في كرسي السيارة، وأنها قد باعت صوتها لساحرة تحت الماء كي تختار لنفسها طريقًا جديدًا في الحياة، تحاولُ الكلام معك فلا تجدُ إلا الإيماءات والابتسامات، تحاولُ أنت الكلام معها فلا تجد إلا أن تصفّر لها لحنًا جديدًا للوجود، تغني لها عن الأمطار التي تغرق السيارة وعن الحياة التي تنتظرها على سطح الأرض، ولكن نظراتها إلى أرض المطر من حولها، أوحال ودموع على زجاج السيارة جعلتها تشتاق إلى أرضها القديمة، وحياتها القديمة، لم تعد تؤمن بالأساطير كدأب كل حوريات البحر اللواتي يصبحن أميرات في النهاية، لم تعد تريد الانتظار والغناء على صخرة تحت باب قصرك، ولم تتحمل فكرة أن تخسر صوتها من أجل أوحال عالم بارد مطير، كل ما كانت تريده هو العودة إلى البحر وانتظار موجة أخرى تجعلها تجلس على الشاطئ لتحاول ارتداء أصدافٍ جديدة على صدرها، كي تخفي عنك زهور بحر لم تحلم برؤيتها من قبل.

قاطعت نفسي عندما تشممت نسائم فرنسية وقلت لك بإن تلك لم تكن إلا "مجدولين" الفتاة الفرنسية التي أحبتك وأحببتها، وإنها لم تستطع في النهاية الاعتياد على حياتكما الجديدة، فاحتاجتْ أن ترجع إلى بلادها، وأنت احتجتَ إلى أن تبكيها دموعًا زرقاء، قُلتَ لي : لو أنها كانت كذلك لما حاولتْ أن تخلق لنفسها ذيلاً

جديدًا، لربما لم تحاول أن تجد لنفسها قصة في حياتك.
ابتسمتُ لك وطلبتُ منك أن تهدأ وأن تحاول منع الدموع التي بدأت تهطل من عينيك، فقُلتَ لي بإن الدموع هي حواراتنا الداخلية مع أنفسنا، وإننا عندما نحاول منعها فنحن نُسكت المنطق الذي يخلق حياتنا ..
ابتسمتُ لك فابتسمت لي ، وطَلَبتَ مني أن أعيد سرد الحكاية، وبدأتُ السرد.

* * *

قلتُ لك :

ــ كل ما أتمناه أن أعرفك أنت ..

فقُلتَ لي :

ــ أنا سأكون كل ما تتمناه ..

* * *

أتنهد وأقول لك إن حورية البحر كانت تحاول ارتداء أصدافٍ جديدة على صدرها، كي تخفي عنك زهور بحر لم تحلم برؤيتها من قبل، تأخذك من يدك وتحملك عبر طبقات الماء إلى قصر جدها "سيبستيان"، تنادي باسمك بفقاعات ماء لم تحلم بأن تحمل ألوان طيف كهذه من قبل، ترسم قوس قزح أزرق جديدًا تحت الماء حيث لم يُخلق قوس قزح من قبل، تغطي جدران قصر جدها "سيبستيان" بألف حكاية عنك، وترسم لك الأسماك ألف لوحة، تخرج من بين أصداف القصر تحمل بيدها ألف جوهرة فتتساقط بدفقات حب حول المكان، تتصاعد من الماء كزفير مخنوق، ثم تصحبك إلى ألف سفينة غارقة، تشهق أنفاسًا تنفسها بحّارة أموات حاولوا النجاة فما استطاعوا، محاولاتهم خلقت لك أفكار نجاتك، تجد في كبائن القبطان ألف مهرج ماتوا منذ ألف عام كانوا يحاولون جعل ملكة ما غرقت منذ سنين أن تبتسم، يعودون للحياة من أجلك أنت وحوريتك، يرقصون بأجراس لا ترن فوق أقنعتهم، الماء يغطي على صوتها فلا تسمعه، لا تسمع إلا غناء محبوبتك التي جاد بها الزمان عليك كما لم يحدث لإنسي من قبل.
يعود المهرجون الموتى إلى موتهم الأبدي، وتنبت شجرة فوق جثثهم كانت هنا عندما كان قاع البحر أرضًا جرداء، ثم ماتت بانتظار ابتسامة تجعلها تحيا ..

سوف تحيا ..

بابتسامتك ستحيا ..!

تتراجع إلى خارج السفينة، وتخلع ثياب الأرض عن جسدك، وينبت لك ذيل سمكة تجعلك بحريًا إلى الأبد .. تمسكك حورية بحرك وتدور بك ألف مرة حول نفسك فتنسيك ماضيك كله، ترى حذاءك القديم وهو يغرق إلى السطح مودعًا إياك بتلويحة لا تفهمها، قبل أن تنسى معنى الحذاء نفسه، وتصبح من مخلوقات البحار إلى الأبد ...

ولن تكون خائفًا بعد الآن .. لن تكون إلا أنت بعد الآن، بقصصٍ لم تحدث وأحلام لم تتحقق، وحكايات كثيرة عن حورية بحر تحاول ارتداء أصدافٍ جديدة على صدرها، كي تخفي عنك زهور بحر لم تحلم برؤيتها من قبل.

تبتسم لي وتقول :

ــ هذا ما حدث بالضبط ..

وتغلق عينيك .. وتنام.

* * *

أحمد رمضان